المرحوم مصطفى حسين ذو الفقار صبري

أديب

ذواقة ! فى صمته تستجلى ثورته، وفى عينيه آثار تفكير جبار . وعلى وجهه بقايا من شرود . عميق كالبئر فلا يتيسر لك أن تسبر غوره

قلبه جياش بالعاطفة ، ورأسه طافح بالأمانى . . ومع سعيه ودأبه تقف دون تحقيق رغائبه العراقيل

خيالى النزعة . . فهو يستغرق فى تأملاته . قل أن يخالط الناس أو يجاريهم فى حديث ما . يميل إلى الوحدة أشبه بالناسك . . كتبه هى سلواه وعزاؤه

تفتحت باصرتاه على الحياة فى العشرين من شهر فبراير عام ١٩١٥ فى أحضان أسرة كريمة . وما انفك أن طرق أبواب مدارس الفرير الفرنسية ولم يزل فى منتصف العام السادس من عمره . وهى مدارس قاسية النظام . تبدأ الدراسة فيها من السابعة صباحاً وتنتهى فى الخامسة مساء

وفى هذه المدارس خضع مبكراً لقيود شاقة مما أعانه فى مستهل حياته العسكرية فيما بعد حتى أنه أصبح باشجاويش الكلية الحربية وفاز بسيف الشرف فى عام ١٩٣٨ عند تخرجه أول دفعته

وكان طلبة تلك المدارس يعاقبون أشد العقاب لو سمع أحدهم يتكلم بغير الفرنسية ، مما جعله يتقن الفرنسية كأحد أبنائها

ولكن قسوة النظام وخضوعه فى تلك السن المبكرة لقيود شاقة ـ كما أورينا ـ جعلته شديد التبرم بتلك الحياة . فما أتم دراسته الثانوية والتحق بكلية الهندسة الملكية . فانتقل بذا فجأة إلى جو طليق ، حتى صار لا يمكنه اخضاع نفسه للإستذكار الطويل الممل . فصمم على السفر الى الخارج لاستكمال دراسته

وتملكته نشوة الترحال فلم يكد يمضى عليه ثلاثة أشهر فى جامعة « ريدنج Reading » بانجلترة حتى بارحها إلى لندن ثم باريس ثم إلى نيويورك بأميركا

وأشفق والداه عليه من ضياع مستقبله خصوصا وقد كان لعائلته مركز ممتاز ، فقررا على مضض أن يتوقفا عن إرسال النقود اليه حتى يضطر إلى العودة

فلما ضاقت به ذات يده فى أميركا ، عز عليه أن يتراجع فاحترف الملاكمة إذ كان قد سبق له تعلمها فى مصر وفوزه بالبطولة الثانية فى مسابقات الكليات للهواة

وقضى شهرين فى أميركا متنقلا على حلقات الملاكمة ولم يخسر مباراة واحدة وكان فوزه فيها جميعها بالضربة القاضية

ثم حدث ما لم يكن فى الحسبان إذ طنطنت له الجرائد ورأى أن يمتحن نفسه فى مباراة ذات عشر جولات ضد بطل واشنجطون ، عاصمة الولايات المتحدة الأميركية ، فى الوزن الخفيف ، هارى طومسون ،

وكانت مباراة شديدة قاسية مع أنها لم تتعد الجولتين . وفى الجولة الأولى ظهر عليه البطل الأميركى بشكل واضح ، ولكن « ذو الفقار » كان له قوة احتمال كبيرة ومقدرة على تسديد اللكمات القاضية

فلما بدأت الجولة الثانية انقض المصرى على غريمه الأميركى فصرعه بضربة شديدة . وقام الأميركى يترنح وكانت فرصة ذهبية . وخشى ذو الفقار أن تفوته إن تركها تمر دون استغلال . فانهال على طومسون بسيل من اللكمات ، وقع بعدها الأميركى وقد أصيب بكسر فى الفك . وأعلن فوز « ذو الفقار » بيد أنه كان قد أصيب هو أيضاً بشرخ فى عظام يده اليمنى ، ومن يومها لم يتمكن من الملاكمة ثانية . .

وهنا مرت به أيام وليال سود . . استشعر خلالها الحرمان والغربة . . فكان من العبث ألا يمسك القلم ليرسم هذه الصور العابسة من حياته

فكتب وكتب كثيراً كتابة تفيض شعوراً وعاطفة وأسى . . تحز فى النفس حين تناولها أو تصفحها . فهى تثير الإنقباض وتوقظ المواجع

إنصت اليه وهو يغنى وحده فى الظلام على قارعة الطريق :

غريب . . مأواه جنح الليل . .

تحت جنبيه قصاصة من صحيفة . .

وفوق صدره بقيـة من أمل . .
وفى بطنه رائحة من طعام . .
أما رأسه فمضطرب بالأحلام . .
ارحمـوه ياقوم حتى ينـام . .
. . . . . .

ومن ثم انفرجت أسارير الأيام . . حين راح يعالج القصة القصيرة . وإذا به يحرر أكثر من واحدة فى أمهات الصحف الاميركية باسم مستعار نظير أجر باهظ

وكان أن تعلقت به فتاة أميركية ، ولعلها أحبته بعبارة أوضح . فتبادل وإياها بضعة رسائل ، عندما يتسنى نشرها ستحدث ضجة فى الوسط الأدبى .

وحدث أن عاد الى مصر . والتحق تواً بالكلية الحربية . فكان دائماً الأول فى جميع الامتحانات وفاز بالجوائز الأولى فى علوم حركات المشاة واللغة الانجليزية والرياضة وركوب الخيل وعلم الطبوغرافيا . وفى بطولة الملاكمة فاز بالجائزة الأولى فى الوزن المتوسط

ثم التحق بسلاح الطيران وصار قائداً ثانياً لطائرة صاحب الجلالة الملك وكان له شرف السفر مع جلالته بالطائرة سبع مرات ، أى قل أنه أمسى نسراً ممتازاً .

ولدى ارتفاعه بالطائرة فى الجو لأول مرة . . وصف أحاسيسه وصور المبانى من تحته ، وصفاً بديعاً ليس فى الوسع أن نذكره .

فطفق يحاول الشعر ، وبالرغم من مثابرته فقد باءت محاولته بالفشل ، فلم ينظم سوى بيتين اثنين يعتز بهما للغاية . .

وهنا تخونه أعصابه . . ويشاء القدر أن يلقى به فى محاضره ما . فاذا باسمه المغمور يملأ الصحف المصرية واذا بصورته تتناقلها المجلات . . عربية وأجنبية .

وكادت حياته تتبدد مع الريح . . لولا أن أعلنت براءته وأخلى سبيله.

وربما كان اعتقاله فى ذلك الحادث من أظهر الأسباب التى ألقت به فى غمرة الأدب .

فقد كان يحب القراءة ، وكثيراً ما كتب سنة ١٩٣٢ و ٣٣ عن الملاكمة على صفحات جريدة البلاغ مقالات متتالية تحت عنوان « كيف تلاكم بنجاح » .

وأقبل فى سجنه على قراءة الأدب . . وعاد إلى مؤلفات وأشعار الشاعر الفرنسى الكبير الفريد دى فينى « Alfred de Vigny » . فقد كان وما يزال كاتبه المختار ، وقرأ مرة أخرى مسرحيات جان راسين «Jean Racine» و « بيير كورنى » « Pierre Corneille » التى كان قد تعلمها فى صغره عن ظهر قلب

وقرأ أشعارا كثيرة لامرىء القيس وأبى العلاء المعرى ...

فلما نفس عن رئيته بمبارحة الاعتقال تملكته نشوة الأدب واستهل عهده بالكتابة فى مجلة الرسالة موقعاً بحرفين من اسمه « ذ . ف » وبذا ضم نفسه الى قائمة خيرة الأدباء فى الشرق العربى !!

ويحكم مهنته كجندى ديج أكثر من مقال فى مجلة الجيش ، الشىء الذى جعله يحظى بالإعجاب والثناء

ولكن كتاباته كانت متأثرة فى طابعها وأسلوبها بموسيقى الشعر الفرنسى وبخيال دى فينى فى حين كانت مقالاته الأولى عن الملاكمة فى البلاغ جامدة الأسلوب

ويتسنى القول بأن كتاباته الأولى كانت تماثل نظام مدرسته الفرنسية القاسى أما كتاباته الآن فقد اكتسبت روح الأدب الفرنسى الخيالية الذى ظل منطوياً فى نفسه سنين عديدة قبل أن تبعثه قراءته الثانية لذلك الأدب فى شهور الاعتقال

وكما أورينا آنفاً أنه قليل الاختلاط ، يقضى وقته مع كتبه المتباينة ، إذ تضم مكتبته حوالى ٧٠٠ كتاب فى جميع المناحى : علوم عسكرية ، علم النفس ، تاريخ ، أدب عربى ، أدب انجليزى ، أدب فرنسى ، فلسفة ، دواوين شعرية ، تراجم ، قصص أدبية ، إذ أنه يرى أن الكتابه تستدعى أن يلم الكاتب بنواحى الحياة جميعها . فإذا كتب عن قائد مشهور رجع إلى كتب فى علم النفس تعينه على تحليل شخصيته ، وإذا وصف موقعة ، درس تاريخ الدولتين المتحاربتين حتى يلم بنفسية الأفراد المشتبكين فى المعركة وبتاريخ جميع المعارك التى ربما تكون قد وقعت على مقربة من الميدان الحالى لأن هذه المعارك القديمة كثيراً ما ترسم فى عقلية القواد الحاليين اتجاهات مخصوصة

وهو يعد حجة فى علم النفس التحليلى ، إذ يكاد يكون قد قرأ جميع ما كتبه فرويد « Freud » فى هذا الباب

ومن هذا يتبدى أنه قليل الانتاج لأنه كثيراً ما يضطر الى قراءة عدة كتب قبل وضع مقال واحد . واذا كتب المقال . أعاد صياغته مرة وأخرى قبل أن يقنع بارساله للنشر . وكثيراً ما يؤلف المقال ثم لا ينشره اذا وجد أنه لم يرتفع الى المستوى الذى رسمه له فى فكره من قبل

وكثيراً ما يسطر ملخصات لبعض الكتب التى يقرؤها باللغة الانجليزية للرجوع اليها فيما بعد اذ أنه يعتقد إنه أقدر على التعبير عن آرائه بتلك اللغة عن اللغة العربية وربما رجع ذلك لكثرة ما قرأه فى تلك اللغة . وأسلوبه باللغة الفرنسيه لا يكاد يقل عن مستوى أسلوبه فى اللغة الانجليزية الا أنه لا يستخدمها الا قليلا فى كتابة بعض الخطابات لأصدقائه القدامى فى الدراسة الثانوية

وأمل هذا الأديب أن يتيسر له يوماً ما كتابة تاريخ خالد بن الوليد باللغة الانجليزية حتى يظهر للغرب عبقرية هذا القائد الاسلامى الذى يتعين أن يرفع فى نظر الجميع الى مراتب عظماء القواد والذى أهمل دراسته الكتاب الغربيون

ويرى أن أعظم الكتب التى قرأها والتى يستعيد قراءتها من وقت لآخر . هى :

الديوان الشعرى لألفريددى فينى (بالفرنسية)

والعبودية والمجد فى الحياة العسكرية — لألفريددى فينى

ومسقط الزند ـ لأبى العلاء المعرى

وصراع مع الشيطان (بالفرنسية)

وعلى هامش السيرة — للدكتور طه حسين

وأهل الكهف — الأستاذ توفيق حكيم

والثورة العربية فى (١٩١٤ — ١٨) بقلم لورنس المشهور (بالانجليزية)

ويرى حسين أن الغرض الأول من الكتابة هو حمل القراء على القراءة وليس مجرد عرض لعدد من الأفكار والحوادث

وقد أقنعته مؤلفات فرويد أن الإنسان انما هو خاضع للعواطف فى جميع أطوار حياته حتى ولو بدا أن عقله المفكر هو الذى يسيطر عليه فعلا

ولذا فانه يرى من الواجب على الكاتب أن يتوجه إلى عقول القراء عن طريق قلوبهم . بأن يبدأ فى استثارة اهتمامهم قبل عرض الحوادث وإلا مل القارىء متابعة القراءة ، خصوصاً إذا كانت غاصة بالمعانى

ثم انه إذا وصف المعارك أو سواها حاول ألا يذكر الحوادث أو التحليلات والتعليلات فى ترتيب جامد بل يحاول أن يدمجها فى قالب قصصى ، إذ يصبح عرضها على القارىء أقرب إلى الواقع

فإن الذى يشاهد حادثاً ما ، لا يرى الحوادث وهى تترى قبالته وحسب بل إنه يتأثر بالملابسات من هرج أو خوف أو حماس يتغلب على من وقف يشاهد المنظر ، فهو لذلك يحاول جهده أن يخلق هذا الشعور لدى القارىء حتى يندمج فى الصورة المرسومة وبهذا يثير اهتمام القارى من ناحية أخرى.. فلا يمل القراءة

وكلمتنا الأخيرة أنه دقيق فى اختيار ألفاظه . وطلاء أسلوبه بالمحسنات اللفظية ، ووزن عباراته على نغم خاص .. فهذه حقيقة بينة قد لا تغيب عن سواه من أدباء الجيش

وعلى حد تعبير الأستاذ « العقاد » أنه أديب ذواقة ، ولو انه يميل أحياناً إلى استعمال الكلمات المهجورة

وضع أكثر من مؤلف .. أحدها يسمى « عاصفة على الشرق » وهو يصف الحرب الأخيرة وهى تلتهم الشرق . بل قل إنه لوحة جسمت فيها الحوادث والمشاكل فتحس بأنك لا تقرأ كتاباً وإنما تشهد معارك وتعيش بين شخوصها وأحداثها الجسام

كما ألف بالانجليزية بضعة كتب نذكر منها كتاب « محمد ، الرسول » وهو بحث اجتماعى صرف تعرض فيه لنقط غامضة ذات أثر كبير فى مجرى حياة « المسلم الأول » . وترجم « ألف ليلة وليلة » إلى الانجليزية بأسلوب مستحدث وبطريقة شائقة لتطابق صور العصر الحديث .. ولكن لا ندرى متى يأخذ عنوان المؤلفان سبيلهما إلى النور !

ومما يؤخذ على ذى الفقار أنه مقل فى إنتاجه ومرجعه تكاسله الناتج عن عدم رضائه عن نفسه ، واستهانة أولى الأمر بقيمته !!

فلكم يود أن تعاد اليه أجنحته ليحلق بها فى السماء .. فأمثال هؤلاء يتعين أن يبتعدوا عن الأرض لكى يحلقوا فى جواء الخيال لتجود قرائحهم بالطيب من الثمار ...